فيديل كاسترو وإفريقيا.. الشيوعية أم الإمبريالية؟

أ. يحيى بوزيدي
أستاذ مساعد بكلية الحقوق والعلوم السياسية – جامعة سيدي بلعباس – الجزائر

استطاع الزعيم الكوبيّ «فيدل كاسترو» صناعة اسمٍ عالميٍّ له من خلال كفاحه ضدّ الاستعمار والإمبريالية، ولعلّ وجود بلاده على مرمى حجر من الولايات المتحدة، وصموده ضدّ كلّ مخططات اغتياله والمحاولات الانقلابية، ساهم في هذا الاعتقاد[1].

هذه الصورة لفيدل كاسترو الزعيم التحرريّ تقابلها صورة أخرى مناقضة لها؛ لا تختلف كثيراً

(١) في مشروع كتاب، يحتوي على تحليلٍ مفصَّل للوثائق التي رُفعت السرية عنها، أعدّه مدير مكتب الشؤون التاريخية التابع لمجلس الدولة، بيدرو ألفاريز-تابيو، يذكر بأنه: حتى ١٩٩٣م كانت هيئات أمن الدولة الكوبية قد اكتشفت وحيّدت ما مجموعه: ٦٢٧ محاولة لاغتيال القائد العام فيدل كاسترو. انظر: فيدل كاسترو، الطغيان العالمي، موقع تأملات القائد العام، ٢٠٠٧/٠٧/٠٧م:
http://www.cuba.cu/gobierno/reflexiones/2007/ara/f070707b.html

عــن نظرائه من زعماء العالم الثالث بشــكلٍ خاص، والمعسكر الاشتراكيّ بشكلٍ عام، وهي صورة الحاكم المستبد المتسلّط، الذي مكث في أعلى هرم السلطة لفتــرةٍ طويلةٍ تجاوزت أربعة عقود، بنى خلالها مجداً عالميّاً له، لكن على حســاب شعبه الذي ما زال يرزح تحت الفقر والتسلّط والديكتاتورية.

وبرغم المســاحة الصغيــرة لبلده؛ فــإنّ رؤيته ونضالــه، إلى جانب رفيقه «أرنســتو تشــي غيفارا Ernesto «Che» Guevara»[1]، امتــد إلــى كلّ أمريكا اللاتينية، ومنها إلى آسيا وإفريقيا.

وفي القارة السمراء؛ شــارك فيدل كاسترو في الكثير من أحداثها، وارتبط اسمه بكلّ زعمائها، وفي مقدمتهــم الزعيم الجنوب إفريقي نيلســون منديلا، غيــر أنّ دَوْر كوبا فــي النزاعــات الإفريقية تعتريه ســلبياتٌ كثيرة، ولم يكن بالصورة الطوبية (المثالية) التي يتمّ تداولها إعلاميّاً.

فيدل كاسترو.. الأيديولوجيا حتى الرمق الأخير:

وُلد الزعيــم الكوبي «فيدل أليهاندرو كاســترو Fidel Alejandro Castro» بإقليــم بيــران، في المنطقة الشرقية من كوبا، يوم ١٣ أغسطس ١٩٢٦م، لأســرةٍ ثريّة من ملاك الأراضي. تلقــى تعليمه في المدارس الكاثوليكية، وكان مجدّاً في دراســته، ومُنح لقب «أفضل رياضي» وهو شابّ عام ١٩٤٤م، ثم تخرّج في جامعة هافانا في ١٩٥٠م؛ بعد حصوله على درجة الدكتوراه في القانون[2].

مارس كاســترو مهنة المحاماة لعامَيْن، وخطّط للترشــح لمقعدٍ في البرلمان الكوبــي عام ١٩٥٢م، لكن الإطاحة بحكومة «كارلوس بريو ساكاراس» على يد «فولغنســيو باتيســتا» أرغمته على عدم الترشح، وبعــد١٩٥٣ م حمل الســلاح ضدّ نظام «باتيســتا» بعد رفض دعــواه القضائية التي اتهمه فيها بانتهاك الدســتور، وقاد هجوماً فاشلاً على ثكنات «مونكادا» العســكرية في ســانتياغو دي كوبا، وسُجن، ثمّ عُفي عنه بعد عامَيْن.

عــاش في منفًــى اختياريّ بالولايــات المتحدة والمكســيك لمدة عامَيْن، ثــمّ عاد لكوبا في١٩٥٦ م على رأس مجموعةٍ قليلةٍ من المتمردين، أطلقت على نفسها: «حركة ٢٦ يوليو»، وانضمّ إلى الزعيم الثوريّ «أرنســت تشــي غيفارا»، وأطاح فــي ١٩٥٩م بحكم باتيستا الديكتاتوري[3].

تمسّك كاســترو خلال نضاله السياسيّ وحكمه بما اعتبره ثوابت متّســقة مــع قناعاته الأيديولوجية والعقائدية، وإن عــدَّل أحياناً في التكتيكات، وانحنى أحياناً أخرى للرياح العاصفة، ولكن بشــكلٍ مؤقتٍ لا يلبث أن يعود بعده إلى المسار المحدد سلفاً، فصمد أمام ضغوطٍ كثيرة، متصاعدة أحياناً ومتنوعة أحياناً أخرى وخانقة أحياناً ثالثة، على مدار أكثر من ســتة عقود من النضال والثورة ثــمّ قيادة الدولة في كوبا، منذ بداية نضاله السياســي، وحتــى اعتزاله العمل السياسي في مطلع ٢٠٠٨م[4].

ومــع انتهاء الحــرب الباردة لم تتخــل كوبا عن توجهاتها الفكرية، كما لــو أنّ التاريخ ثابتٌ لم يراوح مكانــه[5]؛ إذ واجه كاســترو ٤٥ عامــاً من الحصار

(١) أرنستو تشي جيفارا: ثوري كوبي ماركسي، أرجنتيني المولد عام ١٩٢٨م، وهو طبيب، وكاتب، وزعيم، وقائد عسكري، ورجل دولة عالمي، وشخصية رئيسية في الثورة الكوبية.

(٢) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، ٢٥/٠٨/٢٠٠٧م:
http://www.aljazeera.net/specialfiles/-422f-acf0 -7db6 -pages/760e5769 2d03bd06bd4e

(٣) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، المرجع السابق.

(٤) وليد محمود عبد الناصر: فيديل كاسترو.. آخر الأساطير في عالمنا، جريدة الحياة، ٠٢/١٢/٢٠١٦م:
http://www.alhayat.com/Opinion/ /Writers/18849528

(٥) جورج فريدمان: الانفتاح المحكوم.. أي مسار محتمل للعلاقات الأمريكية–الكوبية؟، مجلة السياسة الدولية،

الاقتصاديّ الـذي فرضته الولايـات المتحدة على بلاده، واسـتمرّ نظامـه حتى بعد أفول ثمّ سـقوط الأنظمة الشـيوعية في الاتحاد السـوفييتي وأوروبا الشرقية، حيث نجح الزعيم الكوبيّ في الحفاظ على الأعـلام الحمراء ترفرف أمام أبـواب عدوّه الأكبر: الولايات المتحدة الأمريكية[١].

وبينمـا أضحـت أولويـة «الاقتصـاد» عـن «الأيديولوجيا» إحدى مسـلّمات السياسـة الدولية في نهايـة القرن العشـرين وبداية القـرن الحادي والعشرين، وحتى «روسـيا» وريثة الاتحاد السوفييتي كيّفـت محاولات إحيـاء إرثه والعودة إلى السـاحة الدوليـة؛ من خلال ما اصطُلح عليـه بـ«أيديولوجية المصالح الوطنية»، غير أنّ فيدل كاسـترو اسـتمرّ على نهجه؛ مخيِّباً التوقعـات التي روَّج لها الكثيرون من أنّ انهيار الاتحاد السـوفييتي السـابق وتفككه؛ سـيترتب عليه تلقائيّاً انهيار التجربة الاشتراكية في كوبـا، لكن نجحت كوبا في إيجـاد مصادر بديلة من الدخل القوميّ بعد توقّف المسـاعدات السوفييتية، كمـا نجحت في إيجاد مسـاراتٍ بديلة؛ لم تُبقِ فقط على حالـة الصمود الكوبية، بل عـززت وضع كوبا، وطنياً: بالاسـتثمار في قطاعَي السياحة والصناعات الصغيرة والمتوسـطة، وإقليميّاً: باتساع رقعة اليسار الحاكم في القارة اللاتينية منذ مطلع الألفية الثالثة، وفي مقدّمها فنزويلا بمواردها الاقتصادية الضخمة وشـراكتها مع كوبـا، وهذا ما أدى إلى عزلٍ نسـبيّ للولايات المتحدة عن تطورات القارة اللاتينية مقابل الإقرار بأهمية الدَّوْر الكوبي إقليميّاً.

واستمر كاسـترو في نضاله منذ منتصف القرن الماضي وحتى آخر نفَس، وفي الدفاع عن الشيوعية والاشتراكية، ومهاجمة الرأسمالية، حتى بعد خروجه من السلطة في كوبا.

البيدق.. الصغار في حلبة الصراع بين الكبار:

ينتمي فيدل كاسـترو إلى جيـل زعماء الحركة التحرّريـة الذين خاضـوا معارك كبيـرة مع القوى الاسـتعمارية؛ متسـلحين بإيمانهم بالمبـادئ التي يدافعـون عنهـا، دون امتلاك عناصـر تمكنهم من مجابهة الآلة العسكرية لخصومهم، فانخرط كاسترو في الصراع بين القوتَيْـن العالميتَيْن، واضعاً جزيرة كوبا المجهولة في البحـر الكاريبي في قلب خريطة العالم[٢]، سـاعده في ذلك جغرافيتها، حيث موقعها في المجال الحيـويّ الأمريكـي، ودخولها في قلب الحرب الباردة، حيث كانت مسرحاً لأزمةٍ كادت تنتهي بحربٍ عالميةٍ ثالثة (أزمة خليج الخنازير).

رأى كاسـترو في الثورة الكوبية جزءاً أساسـيّاً من ثـورات الجنوب علـى الاسـتعمار الغربي، وأنّ مصير أمريكا اللاتينيـة مرتبطٌ بمصير كلّ الجنوب، فكان حليفاً لعبدالناصر العربيّ وسـيكوتوري الغيني ومانديلا الإفريقـي[٣]، وجعل من «الثـورة الكوبية» مثالاً للعديد من ثـوار أمريكا اللاتينية أو إفريقيا أو آسـيا[٤]، لذلك قال عنه الزعيم السـوفييتي السابق غورباتشوف: «في القرن العشرين فعل فيدل كاسترو كلّ شـيء لتدمير النظام الاستعماري؛ من أجل إقامة علاقات مبنية على التعاون»[٥].

---

(١) من هو فيدل كاسترو؟، بي بي سي عربي، ٢٠١٦/١١/٢٦م:
http://www.bbc.com/arabic/world-38114876

٢٠١٥/٠٢/٠٦م:
http://www.siyassa.org.eg/NewsQ/5081.aspx

(٢) عبد الباري عطوان: رحل آخر رجال جيل العظماء، رأي اليوم، ٢٠١٦/١١/٢٦م:
http://www.raialyoum.com/?p=570753

(٣) سيف دعنا: فيدل كاسترو: الجنوبي الأخير، موقع قناة الميادين، ٢٠١٦/١١/٢٦م:
http://www.almayadeen.net/articles/opinion/47189

(٤) وليد محمود عبد الناصر، المرجع السابق.

(٥) هكذا نعى العالم فيدل كاسترو، الشرق الأوسط، العدد

وبرغم اعتماده على المساعدة الروسية؛ كان كاسترو أحد أعمدة حركة عدم الانحياز التي تأسست حديثاً في بدايات حكمه[١].

وعمل على نشر الثورات ودعمها في العالم الثالث، متحديّاً واشنطن، حتى الكرملين أحياناً، في وقتٍ غادره رفيق سلاحه غيفارا للقيام بمهمّة مستحيلةٍ في بوليفيا، لكنه قُتل عام ١٩٦٧م[٢]، كان فيدل يريد من رفيق سلاحه أن يكون بطل تصدير الثورة الماركسية في أمريكا اللاتينية، وفي إفريقيا، وخصوصاً في أنجولا، وفي ١٩٧٥م؛ أرسل كاسترو قواته إلى ما وراء المحيط الأطلسي، في مغامرة إفريقية استمرت ١٥ عاماً، شاركت خلالها في معارك في أنجولا وإثيوبيا[٣].

فيدل كاسترو وإفريقيا.. من الاستعمار إلى الإمبريالية:

تزامنت الثورة الكوبية سنة ١٩٥٩م مع الموجة الثانية للاستقلال في إفريقيا، فحتى عام ١٩٦٥م اطرد تقلّص الوجود الاستعماري، ووصل عدد الوحدات المستقلة إلى ٣٥، ولم يعد في القارة إلا ١٣ وحدة خاضعة للاستعمار أي قرابة ١٤٪.

ولقد ساهم في شرعنة الدَّور الكوبيّ في إفريقيا أنه جاء في مواجهة الاستعمار الخارجي، وبخاصّة البرتغالي الذي يعدّ أول استعمار أتى للقارة، وآخر مَن تأثّر بالتحرير؛ إذ لم تعترف البرتغال بأنّ لها مستعمرات في إفريقيا، وإنما كانت تؤكد أنّ تلك المستعمرات هي: «البرتغال ما وراء البحار»، ومن ثمّ رفضت مناقشة استقلال مستعمراتها الإفريقية في إطار الأمم المتحدة، وعندما سقط الحكم الديكتاتوري العسكريّ في البرتغال، الذي قاده «سالازار» في أبريل ١٩٧٤م، وافقت الحكومة البرتغالية الجديدة على استقلال غينيا بيساو في ١ سبتمبر ١٩٧٤م، ثمّ موزمبيق في ٢٥ يونيو ١٩٧٥م، وأنجولا في ١١ نوفمبر ١٩٧٥م، وتلا ذلك اندلاع حربٍ أهليةٍ طويلةٍ في أنجولا، ودخلت القوتان العظميان في هذا الصراع الذي تحوّل إلى «حرب بالوكالة»[٤].

وقد بدأ الانخراط الكوبيّ في القضايا الإفريقية مع دعم النضال التحرّري الجزائري ضدّ فرنسا، ثمّ انتقل إلى الكونغو (زائير سابقاً)، وفي ١٩٦٤م أرسل كاسترو مبعوثه الشخصيّ «تشي غيفارا» في زيارة لثلاثة أشهر لعددٍ من البلدان الإفريقية، حيث كان يعتقد الكوبيون بوجود حالةٍ ثوريةٍ في وسط إفريقيا، وأرادوا المساعدة في ذلك[٥].

وبلغ الوجود العسكريّ الكوبيّ ٤٦ ألف جندي وخبير، موزّعين على ١٤ دولة في إفريقيا، وتركّز معظمهم في كلٍّ من أنجولا غرباً وإثيوبيا شرقاً[٦]، ومع نهاية الحرب الباردة كان ٣٨١٤٣٢ على الأقل من الجنود والضباط الكوبيين حاربوا جنباً إلى جنب مع الجنود الأفارقة من أجل الاستقلال الوطني أو ضدّ العدوان الأجنبي، وفقَدَ الكثير منهم حياتهم في هذه الحروب، ففي ١٩٨٧م ذكرت صحيفة لوس أنجلوس

١٣٨٧٨، ٢٠١٦/١١/٢٦م:
/http://aawsat.com/home/article/793411

(١) فيدل كاسترو، الجزيرة نت، المرجع السابق.

(٢) فيدل كاسترو.. سيرة القرن العشرين، الجزيرة نت، ٢٠١٦/١١/٢٦م:
http://www.aljazeera.net/news/reportsandintervi
/26/11/ews/2016

(٣) فيدل كاسترو.. سيرة القرن العشرين، المرجع السابق.

(٤) محمد سيد سليم: تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢، ص ٥٤٢.

(٥) Sean Jacobs, To so many Africans, Fidel Castro is a hero. Here's why, .theguardian, 2016/11/30: ,
https://www.theguardian.com/commentisfree/2016/nov/30/africa-fidel-castro-nelson-mandela-cuba

(٦) صلاح الدين حافظ: صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٩، يناير ١٩٨٢، ص ١٣١.

تايمز أنّ ١٠٠٠٠ جندي كوبي قُتلوا في أنجولا منذ ١٩٧٦م، وهذا أعلى بكثير من الوفيات الأمريكية في فيتنام[١].

واستمر وفاء فيدل كاسترو لإفريقيا حتى بعد نهاية الحرب الباردة، حيث واصل دعمها، بتدريب الأفارقة في الجامعات الكوبية، وعندما تفشّى مرض الإيبولا في ثلاث دول إفريقية غربية؛ اضطر منتقدو كوبا- الأمريكيون أنفسهم- إلى الإقرار بمساهمتها في التخفيف من الأزمة، ففي إحدى مراحلها، قدّمت كوبا، التي لا يتجاوز عدد سكانها ١١ مليوناً، أكبر مجموعة من العمال الطبيّين الأجانب، مقارنةً بأيّ دولةٍ أخرى كانت تعمل إلى جانب الأطباء الأفارقة[٢].

كوبا والتجاذبات القطبية في إفريقيا:

شكّلت أنجولا محور الوجود الكوبيّ في إفريقيا، ومنها امتدّ ليشمل كلّ إقليم جنوب إفريقيا، حيث ارتبط النزاع بمصير الأنظمة السياسية بالدول المجاورة، وبخاصّة نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا الذي تدخّل في دول الإقليم لإعاقة الحركة الاستقلالية فيه، وضمان استمراريته في مواجهة «مقاومة الحزب الوطني» التي اتخذت من تلك الدول قواعد خلفية في حربها معه.

ففي ناميبيا: قرّرت الأمم المتحدة في ١٩٦٦م إنهاء إدارة جنوب إفريقيا للإقليم، فرفضت الأخيرة القرار؛ ما أدى إلى تصعيد المقاومة التي قادتها المنظمة الشعبية لإفريقيا الجنوبية الغربية (سوابو)، وفي ديسمبر ١٩٨٨م انسحبت جنوب إفريقيا من ناميبيا؛ بعد أن حصلت على تعهّدٍ بانسحاب القوات الكوبية من أنجولا[٣]، فقد سبق أن استحضرت ناميبيا قوات كوبية، ساعدت قواتها على مقاومة «سافيمبي» وجنوب إفريقيا[٤].

وفي أنجولا: نشبت، فور انسحاب البرتغاليين في نوفمبر ١٩٧٥م، حربٌ أهليةٌ بين الحركة الشعبية لتحرير أنجولا mpla بقيادة أغوستينو نيتو، والجبهة الوطنية لتحرير أنجولا fnla بقيادة روبرتو هولدن، والوحدة الوطنية للاستقلال الكامل لأنجولا unita بقيادة جوناس سافيمبي، وبفضل تأييد منظمة الوحدة الإفريقية حظيت حكومة «الحركة الشعبية لتحرير أنجولا» بالاعتراف بها حكومةً شرعيةً لأنجولا.

وظلّ النزاع قائماً مع سيطرة قوى اليونيتا الثائرة بقيادة سافيمبي على أجزاء كبيرة من البلاد، إلى أن وقّع اتفاق وقف إطلاق النار في ٣١ ماي ١٩٩١م.

ولم يكن الاستعمار البرتغاليّ بمنأى عن تلك الصراعات، بل كان المحرك الأساسي لها، فقد تمثّلت المقاومة الحقيقة للاستعمار البرتغاليّ في الحركة الشعبية لتحرير أنجولا mpla، وعلى النقيض ظهر التحالف بين الإدارة الاستعمارية وبين قيادة جماعة أوفيمبوندو منذ بداية العمليات المسلحة لحركتَي التحرير، لتشارك الجماعة بقوة في العمليات العسكرية بجانب القوات البرتغالية، ويرجع هذا التحالف للسنوات الأولى لدخول البرتغاليين لأنجولا، حيث كانت الجماعة أحد أهمّ الشركاء في تجارة الرقيق[٥].

وفي السياق نفسه؛ بدأ التدخل الجنوب إفريقي قبل خروج الاستعمار البرتغالي من المنطقة؛ حيث وطدت الإدارة البرتغالية في المستعمرات الإفريقية تحالفها مع النظام العنصريّ في كلٍّ من جنوب إفريقيا وزيمبابوي (روديسيا الجنوبية آنذاك).

(١) Sean Jacobs, Op.cit

(٢) Sean Jacobs, Op.cit

(٣) محمد سيد سليم، المرجع السابق، ص ٥٤٢.

(٤) علي المزروعي وآخرون: إفريقيا منذ عام ١٩٣٥م، نيويورك: اليونيسكو، المجلد الثامن، ص ٣٠٤.

(٥) أحمد أمل محمد إمام: الإثنية والنظم الحزبية في إفريقيا، القاهرة: دار المكتب العربي للمعارف، ص ١٣٧.

وبذلك؛ كان الصراع مع جنوب إفريقيا امتداداً للصراع مع الاستعمار البرتغالي، فعشية استقلال أنجولا؛ انطلقت بعض القوّات العنصريّة من ناميبيا- المحتلّة من قِبل جنوب إفريقيا- مدعومة بدبابات خفيفة، واخترقت أكثر من ألف كم من ضواحي لواندا، لكنّ كتيبة من كتائب القوات الخاصّة الكوبية، تمّ إرسالها جويّاً، وبعض تشكيلات من الدبابات السوفييتية، استطاعت احتواء الأمر[١]، وبررت كوبا تدخّلها بأنه كان ردّاً على جنوب إفريقيا.

وبدأ التدخل الكوبيّ في أنجولا، وتسارع عندما كانت المنظمة الشعبية mpla تكسب الأراضي، وكانت أول وفود الكوبيين تزيد عن ٢٠٠ مستشار، وصلوا قبل ظهور الجنوب إفريقيين، وكان هدفهم تدريب قوات المنظمة الماركسية على التكتيكات والتجهيزات السوفييتية.

واقترح كاسترو توسيعاً كبيراً للتدخل على بريجنيف، وعندما تردد الزعيم السوفييتي تابع كاسترو التدخل بمفرده، فبدأت تصل وحدات كوبية متتالية، بلغت في النهاية مستوى يزيد بمقدار عشرين مرة عن الانتشار الجنوب إفريقي[٢].

وما عزّز هذا الوضع الاصطفافات الدولية بين القوى المتصارعة لاحقاً، بوقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب جنوب إفريقيا، وحشدها دعم المستعمرين السابقين إلى جانبها.

القضاء على نظام التمييز العنصري: لم يبق الصراع «الكوبي-الجنوب إفريقي» محصوراً في أنجولا وناميبيا، بل امتد حتى للنظام الجنوب إفريقي نفسه، فمع الحصار الدوليّ والمقاطعة السياسية والاقتصادية للنظام العنصري؛ ازدادت حدّته، وأخذ يوغل في إجراءاته القمعية، وألقى في السجون بعددٍ كبيرٍ من رجال المقاومة، كان من بينهم نيلسون مانديلا، ما اضطر حركة المقاومة إلى حمل السلاح آخر الأمر.

وكانت كوبا رأس الحربة الأهمّ في القضاء على نظام التمييز العنصري، فكاسترو ورفاقه وأهل كوبا هُم مَن كسروا عموده الفقري؛ حين حاربوه مباشرة لسنوات ودون يأسٍ في أنجولا وناميبيا، حتى في جنوب إفريقيا نفسها، واستنزفوه[٣]، وكانت أهمّ محطاته مشاركة الكوبيين في معركة كويتو كوانافالي المفصلية عام ١٩٨٨م.

وبعد انتصار الثورة، وإسقاط نظام التمييز العنصري (الأبارتهايد Apartheid) في ١٩٩١م، وخروج نيلسون مانديلا من السجن بعد ٢٧ عاماً من الحبس الانفرادي، وانتخابه رئيساً لبلاده، اختار الزعيم الإفريقيّ هافانا محطةً أولى لجولته الخارجية، وقال مانديلا حينها: «صديقتنا كوبا، ساعدتنا على تدريب شعبنا، وزودتنا بسلاحٍ مكّننا من المضي في نضالنا»، وأضاف: «خلال السنين التي أمضيتها في السجن كان فيدل كاسترو مصدراً للإلهام والصمود»[٤]، وفي نهاية رحلته الكوبية أجاب مانديلا عن الانتقادات الأمريكية حول ولائه لكاسترو: «يجري نصحنا حول كوبا من قِبل الذين دعموا نظام الفصل العنصري الـ ٤٠ سنة الأخيرة، لا رجل شريف أو امرأة على الإطلاق يمكن أن تقبل النصيحة من الذين لم يهتموا بنّا في أصعب الأوقات»[٥].

(١) سمية ربيع: فيدل كاسترو يكتب عن الحدث في العلاقة بين كوبا وجنوب إفريقيا، أخبار الأدب، ٢٠١٣/١٢/٢٨م: http://www.dar.akhbarelyom.com/issuse/detailze.asp?mag=a&field=news&id=7480

(٢) هنري كيسنجر: سنوات التجديد، (ترجمة هشام الدجاني)، الرياض: مكتبة العبيكان، ط٢، ٢٠١٠م، ص ٧٣٤.

(٣) سيف دعنا، المرجع السابق.

(٤) عمر ناشبة، المرجع السابق.

(٥) Sean Jacobs,Op.cit

من الصومال إلى إثيوبيا.. فيدل كاسترو والأنظمة العسكرية في إفريقيا:

الدَّوْر الكوبي- مرّة أخرى- في إثيوبيا:

بــرز الدَّوْر الكوبيّ في إثيوبيــا مرةً أخرى، ولكن في سياقٍ مختلفٍ بشــكلٍ كبيرٍ عن الحالة الأنغولية، فالوضع الإثيوبيّ لم تكن فيه قوة استعمارية، باعتبار أنّ إثيوبيا من أوائل البلــدان الإفريقية التي حصلت على اســتقلالها، لكنها خاضت غمار أكثر من حربٍ أهليــةٍ في الفترة من ١٩٦١م إلــى ١٩٩١م[١]، تمحور الصراع فيها حول انفصال الصومال وإريتريا عنها.

كان الاتحــاد الســوفييتي ضــدّ سياســات الإمبراطوريــة الإثيوبية في كبــت حرية الصوماليين والإريتريّيــن، وحرمانهم من حــقّ تقرير مصيرهم، فســاند حركة التحرّر الإريتــري والكفاح الصومالي المطالبة باســتعادة أراضيها الواقعة تحت الاحتلال الإثيوبي.

لكــن حدث انقــلابٌ فــي موازيــن التحالفات والصداقــات منــذ ١٩٧٤م؛ عندما وقــع الانقلاب العســكريّ ضدّ الإمبراطور هيلا سيلاســي، ورفع ضباط الثورة الإثيوبية شــعاراتٍ اشــتراكية، فتبدّل الحلفاء، وأعلن السوفييت دعمهم للنظام الجديد في أديس أبابا، برغم أنه ظلّ متمســكاً بمطالب ومزاعم الإمبراطور المخلــوع في ملكية أراضــي الصومال وإريتريا[٢]!

يمكن فَهْم السلوك السوفييتي أنه جاء متّسقاً مع المصالح الجيوسياسية، والبحث عن مكاسب أكبر في إطار التنافس مع الولايات المتحدة.

ولكن الســلوك الكوبيّ يتناقض مــع القيم التي رفعهــا فيدل كاســترو وكان يدافع عنهــا في الوقت نفســه على الجبهة الجنوبيــة الغربية لإفريقيا، فقد تدفقت على إثيوبيا موجات كثيفة من الجنود الكوبيين والخبراء العسكريين السوفييت وخبراء الأمن الألمان الشرقيّين، وحســب التقديرات؛ فإنّ الكوبيين وصلوا إلى ٢٥ ألف جندي، وبلغ عدد السوفييت بين ١٥٠٠- ٢٠٠٠ خبيــر، وكذلــك جاء العدد نفســه تقريباً من ألمانيا الديمقراطية[٣].

ومن أهمّ مظاهر نشاط السوفييت والكوبيين في إثيوبيا إعادة تكوين وتحديث وتطوير الجيش الإثيوبيّ الــذي انهــار في إريتريا مــرّات كثيرة، وفشــل في الصومــال الغربي أمام ثوار الأوغادين، وأيضاً تدريب مائتي ألف من الميليشــيات الإثيوبية وتســليحهم، وذلك بهدف تدعيم النظام العســكريّ الاشــتراكيّ الحاكم ليكون بالفعل نقطة ارتكاز مهمّة، وبؤرة إشعاع تحقّق المصالح الواسعة للمعسكر الشرقيّ في القرن الإفريقيّ خاصّة، وإفريقيا كلها، ويشجّع تيارات الثورة ضدّ النفوذ الأوروبي الأمريكي[٤].

وما يؤكــد تناقض الموقف الكوبي، وأنه عبّر عن المصالح السوفييتية فقط، دون أن تكون له أيّ رسالة نبيلة يدافع عنها، أنّ الجبهة الشــعبية لتحرير إريتريا تحمــل أيديولوجية «يســارية»، وكانــت لها علاقات وطيدة مع موســكو وهافانا من قبل، وتحوّلت لاحقاً إلى أكثر المتشــددين في اتهام العاصمتَيْن بمساندة الإثيوبيين، وبمشــاركتهم في القتال ضدّ ثوار إريتريا، مســتدلة بأنّ طلائع الجبهة رصدت، بميدان القتال، جنرالات ســوفييت وضباطاً وجنوداً كوبيين يقاتلون جنباً إلى جنبٍ مع الإثيوبيين[٥]!

وعلى الجانب الصومالي:

كان سياد بري، الذي وصل إلى السلطة بانقلابٍ عسكريٍّ عقب اغتيال الرئيس الصومالي في ١٩٦٩م، حليفاً للاتحاد الســوفييتي وكوبا، وصار يُطلق عليه: القمر الصناعي الســوفييتي بالمنطقــة، وبدأ يزور

(١) علي المزروعي وآخرون، المرجع السابق، ص ٤٩٥.

(٢) صلاح الدين حافظ، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

الدول الإفريقية ليقنع رؤساءها بالانضمام للمعسكر الشـــرقي، كما أنّ الشعارات الشـــيوعية والماركسية ملأت شوارع مقديشو[1].

غير أنّ كلّ ذلك لم يشفع لسياد بري عقب وصول «الرفاق الاشتراكيين العسكريين» للسلطة في إثيوبيا، وبرغم التحالف القوي بين سياد بري وفيدل كاسترو؛ في إطار الأيديولوجية التي جمعتهما.

وفيما بعد؛ فرَضَ المشـــروع القوميّ الصوماليّ على سياد بري الخلافَ مع فيدل كاسترو والمنظومة التي انتمى إليها، فمع إصرار بري على استعادة إقليم «أوغاديـــن» مـــن إثيوبيا؛ انحاز كاســـترو إلى إثيوبيا لرفض مبادرته حول مشـــروع الكونفيدرالية بين عدة دول شملت: (الصومال، إثيوبيا، اليمن الجنوبي)، لخلق تكتّلٍ إقليميٍّ أيديولوجيٍّ يسيطر على البحر الأحمر، ودفع رفض بري للمقترح فيدل كاسترو لتهديده، ورحل بعد زيارة قصيرة له بمقديشو[2]، وبعد شهرين؛ كانت الدبابات الصومالية تقصف مواقع الدفاع العسكرية الإثيوبية، وسيطرت القوات الصومالية على أوغادين، وانتقلت إلى وسط إثيوبيا، فأرسل الاتحاد السوفييتي مستشارين عســـكريّين، وقدّم المساعدة التقنية إلى إثيوبيا، وبعث كاسترو آلاف الجنود أيضاً إلى إثيوبيا، وبحلول مـــارس ١٩٧٨م عانت القوات الصومالية من هزائم ثقيلة، وطُـــرِدُوا- مرة أخرى- إلى حيث بدؤوا الهجوم ضدّ إثيوبيا[3].

(١) فهد ياسين: عودة العلاقات الصومالية-الروسية بعد عقود من القطيعة: أهدافها ومستقبلها، الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٦/٠٦/٢٩م، ص ٠٣.

(٢) خالد حسن يوسف: شجاعة سياد بري وكونفيدرالية فيدل كاسترو، الحوار المتمدن، العدد ٥٣٥٤، ٢٠١٦/١١/٢٧م: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=539377

(٣) هارون معروف: فيدل كاسترو ودوره في تمزيق الصومال، ترجمة عبد الحكيم نجم الدين، مجلة قراءات إفريقية، ٢٠١٦-١١-٢٩م: http://qiraatafrican.com/home/new/

يقـــود التعمّق في أبعاد السياســـات الكوبية في القرن الإفريقيّ إلى ملاحظات مهمّة حول دَوْرها في إفرقيا بشكلٍ عامّ:

أولى تلك الملاحظات: تزامن التدخّل الكوبيّ في أنجـــولا وإثيوبيا برغم اختلاف الســـياقات؛ ما يدفع لإعادة النظر في حقيقة الدَّوْر الكوبي في إقليم جنوب غرب إفريقيا؛ إذا ما كان فعـــلاً بهدف القضاء على الاســـتعمار ونظام الفصل العنصري، أو السعي لنشر الماركسية في القارة؛ إذ أنّ الدعم الكوبي السوفييتي لإثيوبيا ضـــدّ الصومال وإريتريا ليس له أيّ مســـوّغ أخلاقي مماثل لذلك الذي تدثّرَا به ضدّ الاســـتعمار البرتغالي أو نظام الفصل العنصري، وبذلك يتأكد أنّ الأســـباب الحقيقة ارتبطت بالمصالح الجيوسياسية للاتحاد السوفييتي فقط.

ويتأكد هذا الاســـتنتاج بالملاحظة الثانية: وهي أنّ جميـــع أطراف النزاع في القرن الإفريقي (إثيوبيا – إريتريـــا – الصومـــال) كانـــت كلها تحـــت المظلة الأيديولوجية الشـــيوعية، وبرغم ذلـــك فإنّ الكوبيين والسوفييت تدخَّلا إلى جانب رفيق على حساب رفقاء آخرين يسبقونه في ولائهم للسوفييت.

والملاحظة الثالثة: التي ترجّح أكثر الاستنتاجات أعـــلاه: أنّ النظامَيْن الإثيوبـــيّ والصوماليّ لم تكن ممارســـاتهما التســـلطية تختلف عن سياسات نظام الفصـــل العنصري، ومن جهة أخـــرى؛ فإنها لم تكن تمتلك شـــرعية؛ بوصفها أنظمة عســـكرية انقلابية، وهي الظاهرة التي طالما ادعى كاسترو محاربتها.

تفسير التناقض بين شعارات كاسترو وممارساته في إفريقيا:

يحتاج تفسير التناقض بين شعارات فيدل كاسترو وممارســـاته في إفريقيا إلى العودة إلى تلك الجزيرة الصغيرة مرة أخرى، إذ تفترض مواجهة فيدل كاسترو للنظام الانقلابي لباتيســـتا وخـــوض حرب عصابات حتى إسقاطه: رفضه للانقلابات العسكرية، ويصبح

ذلك ركيزة أيديولوجية ومبدأ لا يقلّ أهمية عن المبادئ الماركسية التي آمن بها، غير أنّ الممارسة السياسية للزعيم الثوريّ تختلف عن ذلك كليّاً، بداية من كوبا التي حكمها حكماً عسكريّاً مطلقاً لا يختلف عن أيّ نظام عسكري آخر.

فقد حوّل كاسترو بلده إلى بلدَيْن: بلد الفقر للكوبيّين، وبلد الجنّات السياحية المقصورة على الأجانب والممنوعة على المواطنين، تماماً مثلما كان الحال في وجود عملتَيْن، واحدة للمواطنين، والثانية لأثرياء السياحة.

ولم يكن كاسترو قديساً: فقد ساهم في «تطهير» صفوف «الثورة» من كلّ رجال العهود السالفة، تحديداً عهد الرئيس السابق فولخانسيو باتيستا، مقتنعاً بنصيحة غيفارا، الذي أسرّ له أنّ: «خطأ جاكوبو أربينز في غواتيمالا؛ حين لم يقم بتطهير صفوفه قبل الانقلاب العسكري عليه، عبر الإعدامات، لو فعلها لما قام عليه أحد»، فحسم موقفه، فوافق على تنفيذ الإعدامات «باسم الشعب الكوبي».

أما الديمقراطية: فلمّا سأل الرفاقُ فيدل عن الانتخابات التي خطّطوا لها، في الأيام الأولى للثورة، تمسّك برفضها؛ بحجّة أنها قد تهدّد الثورة، فالإمبرياليون والأعداء يتربصون بها من كلّ حدب وصوب.

كانت القرارات عسكرية وحاسمة، عُلّقت المشانق لـ«العملاء» في الشوارع، كانت تلك أيضاً مطالب الشعب الكوبي، وأُبعد رفاق الثورة الذين وقفوا عقبة أمام «إصلاحات وقوانين» فيدل، الذي توجّته زعيماً حمامةٌ بيضاء حطّت على كتفه أثناء إلقاء خطابه الأول إلى الجماهير، في مباركةٍ من «الآلهة»! (بحسب ديانة سانتيريا) للقائد الشيوعي[1].

يكفي حذف اسم «فيدل» في الفقرتَيْن أعلاه واستبدال أيّ حاكم إفريقي آخر به (سياد بري في الصومال، أو منجستو هيلا ماريام في إثيوبيا) ممن وصل إلى السلطة عن طريق انقلابٍ عسكري، وما أكثرهم، فجلّ الأنظمة الإفريقية بعد الاستقلال قام فيها العسكر بانقلاباتٍ رافعين شعارات العدالة والتنمية والتطور، ولتثبيت حكمهم الوليد، وشرعنة سلطتهم، وجدوا في الاشتراكية ومواجهة الإمبريالية أقرب المسالك إلى قلوب شعوبهم التي عانت لعقودٍ طويلة من الاستعمار، وانتظرت بعد استقلالها مرحلة أفضل ينعمون فيها بالاستقرار والرفاهية.

ففي الصومال: بعد استيلاء سياد بري على السلطة إثر انقلابٍ عسكريٍّ في ١٩٦٩/١٠/٢١م؛ قام مباشرة بتعليق الدستور وإلغاء البرلمان، وبدأ حكم البلاد حكماً مطلقاً، وألقى برموز السلطة السابقة في السجون، وعمل على التخلّص من بعض الضباط البارزين في مجلس قيادة الثورة، وأعلن الاشتراكية العلمية منهجاً سياسيّاً وفكريّاً للبلاد، وبدأت الحكومة الصومالية بتنفيذ ما وُصف بأنه أكبر حملة ماركسية لينينية في إفريقيا، وفي ١٩٩١م اضطر سياد بري إلى الهرب من البلاد، مخلّفاً وراءه ٢٠ مليار دولار من الديون، وعشرات الآلاف من ضحايا الحرب الأهلية التي لا تزال مستمرة[2].

وفي إثيوبيا: قرّر النظام العسكريّ الذي أسقط نظام هيلا سيلاسي ١٩٧٤م تحويل إثيوبيا إلى دولة اشتراكية ذات نظام ماركسيٍّ لينيني، واتبع نظاماً أوتوقراطياً عسكريّاً، الغلبة فيه للقومية الأمهرية، ما أدى إلى ازدياد نشاط المعارضة، وبخاصّة جبهات تحرير إريتريا وتغراي وأورومو، وتكررت الهزيمة في إريتريا التي نالت استقلالها عام ١٩٩٣م، كما سقط

(١) شهرة سلوم، كوكب فيدل.. حكاية الحلم الأحمر (٠١/٠٩)، العربي الجديد، ٢٠١٦/٠٥/١٠م:
https://www.alaraby.co.uk/politics/2016/10/5/

(٢) أنور قاسم الخضري: أوضاع الصومال في القرن الإفريقي وأثرها على الأمن في إقليم البحر الأحمر، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٢، سبتمبر ٢٠٠٥م، ص (٧٩-٨٠).

الحكم الشـيوعي فيها وحكم منغسـتو هايله مريام، وصدر حكم اسـتئنافي بالإعدام عليه مع ثمانية من كبار مسـؤولي نظامه، وأقر بذنبه في ١٢ ديسـمبر ٢٠٠٦م بالتطهير العرقي في الفترة المعروفة باسـم: «الرعب الأحمر» (١٩٧٧-١٩٧٨)[١].

الخاتمة:

لا يمكن جحد الدَّوْر الكوبيّ في إفريقيا، وأحسن من عبّر عنه مانديـلا حين قال: «هذه أول مرة يأتي فيهـا بلدٌ من قارة أخرى، ليس ليأخـذ منّا أمراً ما، بل ليسـاعد الأفارقة في نيل حريتهم»[٢]، وفعلاً دعم كاسـترو البلدان الإفريقية بالسـلاح والرجال، حيث قاتـل آلاف الكوبيـين إلى جانـب الأفارقة، فضلاً عن الدعم اللوجيسـتي؛ إذ أرسـل عشرات الآلاف من الكوبيين في مختلف المجـالات أطباء ومعلمين ومهندسين وغيرهم، وحين غادرها فإنه حمل توابيت جنوده وليس معها أي برميل نفط.

وأهمّ ما قام به الكوبيون في القارة السمراء كان في إقليم جنوب إفريقيا بشكلٍ عامّ، حيث شاركوا في دحر الاستعمار البرتغالي، والقضاء على نظام الفصل العنصري، ووقفوا سـدّاً منيعاً دون التغلغل الأمريكي لمـلء الفراغ الاسـتراتيجيّ الذي تركه الاسـتعمار الأوروبي.

تداعيات هذا الدَّور في إفريقيا دفع ثمنها الشعب الكوبي، فقـد أدّى إلى تعميق التوتـر في العلاقات الأمريكية الكوبية، وهو ما كانت له آثارٌ سـلبيةٌ كبيرةٌ سياسـيّاً واقتصاديّاً، ويبقى الجدل في الموازنة بين قيم العزة والكرامة في مجابهة الهيمنة الأمريكية التي يتدثر بها النظام في كوبا، وبين ممارسـته التسـلط والاستبداد على شعبه.

هـذه الجدلية على المسـتوى الكوبيّ الداخلي؛ تنسـحب علـى دَوْر كوبا في إفريقيا أيضـاً، فبينما وقف كاسـترو ضـدّ النظـام الانقلابيّ فـي بلده، وعارض الأنظمـة الانقلابية التي دعمتها المخابرات الأمريكيـة فـي أمريـكا الجنوبية؛ فإنـه وقف إلى جانب الأنظمة الانقلابية الإفريقية لكونها تشـترك معه في الأيديولوجية الاشـتراكية، ومنحازة للاتحاد السوفييتي، ومعارضة للولايات المتحدة، وهذا البعد شـكّل المحدّد الأساسي لسياسات فيدل كاسترو في إفريقيا، فشعار معارضة الإمبريالية كافٍ لأنّ يصطف كاسترو إلى جانبه، ويدفع بآلاف الكوبيين للقتال في سـاحاته، وليس من المهم طريقة وصول هذا النظام إلى السلطة، ولا ممارسـاته بحقّ شعبه، أو الأقليات والأمم الأخرى التي تريد إنشاء دولة خاصّة بها؛ على غرار الحالتَيْن الإريترية والصومالية مع إثيوبيا.

ومن جانب آخر؛ كرّس وشـرعن فيدل كاسـترو نظريّاً وعمليّاً أنظمة «الحزب الواحد» الاشتراكية في إفريقيا، فعلى مستوى الخطاب السياسي؛ استثمرت تلك الأنظمة في شـعارات مواجهة الإمبريالية التي رفعها الزعماء الثوريون حينها، على غرار: الكفاح ضدّ نظـام التمييز العنصري في جنـوب إفريقيا، وبرغم قيمة نيلسـون منديلا بوصفه زعيماً عالميّاً، وإشادته المسـتمرة بفيدل كاسترو، فإنّ سـلوك الرجلَيْن في الحكـم يختلف جذريّاً، فالأول لـم يبق أكثر من فترةٍ واحدةٍ في السـلطة، بينما اسـتمر فيها الثاني حتى عَجْـزه صحيّاً، ليخلفه أخوه! في توريثٍ للسـلطة لا يختلـف كثيراً عن الأنظمة الوراثية التي طالما ادعت الأحزاب الاشـتراكية الثورة عليهـا، كما حصل في إثيوبيا، ودعمت هـذا الخطاب عمليّاً؛ بالمشـاركة الفعلية في تلك الحروب، ولفترةٍ زمنيةٍ تجاوزت ثلاثة عقود، راح ضحيتها عشـرات الآلاف مـن الكوبيين وغيرهم ■

(١) الحكم بالإعدام على الديكتاتور الإثيوبي السابق منغستو مع ٨ من مسؤولي نظامه، الشرق الأوسط، العدد ١٠٧٧٢، ٢٠٠٨/٠٥/٢٦م:
http://archive.aawsat.com/details.asp?section=59&article=472369&issueno=10772#.WFPqO7kcYqE

(٢) Sean Jacobs, Op.cit